ورقة نعوة المعارضة السورية

■ حميدي العبدالله

وجّه زهران علوش خطاباً إلى أنصاره تحدّث فيه عن الحصار المحكم المفروض على الغوطة الشرقية منذ حوالي ثلاث سنوات. ومعروف أنّ الحصار على الغوطة الشرقية ليس عمره ثلاث سنوات، وليس حصاراً محكماً والدليل على ذلك أنّ علوش ذاته لا يزال ينتقل بين الغوطة وتركيا وغرفة «الموك» في الأردن.

قد يكون الحصار على الإرهابيين لجهة حريتهم في الحصول على العتاد وتدفق المزيد من الإرهابيين أصبح محكماً بفعل إجراءات الجيش العربي السوري، ومراقبته الدائمة والمتواصلة لخطوط إمداد المجموعات الإرهابية المسلحة، ولكن هذا الحصار عمره أشهر وليس ثلاث سنوات، وبالتالي لماذا استفاق علوش الآن على هذا الواقع طالما أنّ عمره ثلاث سنوات، وهو الذي كان قبل أشهر قليلة يستعرض قواته ويهدّد بغزو مدينة دمشق؟ لا شك أنّ الهدف من وراء هذه التصريحات تبرير عجز داعميه عن الوفاء بما التزموا به أمامه لجهة إضعاف الجيش العربي السوري وإيصال الدعم الذي يمكنه مع جماعاته الإرهابية من توسيع نطاق اعتداءاتهم وسيطرتهم على المزيد من الأراضي السورية.

إنّ صرخة زهران علوش في هذا التوقيت حول الحصار المحكم، ما هي إلا محاولة لرفع المسؤولية عن المصير القاتم الذي ينتظر الجماعات المسلحة في الغوطة الشرقية بعد أن تداعى معسكر الداعمين والراعين لها.

رياض الأسعد، وهو ضابط منشقّ، وفي التوقيت ذاته الذي أدلى به زهران علوش بتصريحاته حول الحصار المحكم على الغوطة الشرقية، وجّه انتقادات لاذعة إلى الغرب وللولايات المتحدة وحكومات المنطقة التي وعدتهم بالدعم وتخلت عن وعودها، علماً أنّ ما حصلت عليه الجماعات المسلحة من دعم مالي وعسكري لم تحصل عليه أي جماعة مسلحة متمرّدة على وجه الكرة الأرضية، فالجهد العسكري الذي بذل في مواجهة الجيش العربي السوري، من عتاد وتمويل للإرهابيين يحتاج إلى مليارات الدولارات، وفي كثير من الجبهات كان لدى فصائل المسلحين غزارة نارية تفوق الغزارة النارية التي تتوفر للجيش العربي السوري، فمن أين جاء كلّ ذلك إذا لم يكن هناك دعمٌ للمسلحين بمليارات الدولارات.

يبدو أنّ تصريحات زهران علوش ورياض الأسعد، وهما المحسوبان على «المعارضة المعتدلة»، هي بمثابة نعوة لهذه المعارضة، لا سيما بعدما انتهى إليه حال الفرقة 30 التي درّبها الأميركيون ووعدوا بحمايتها عند عودتها إلى الأراضي السورية على أيدي التنظيمات الإرهابية، شقيقة «المعارضة المعتدلة». كما أنها تعكس القلق من تخلي داعميهم عنهم بشكل نهائي في ضوء ما تشهده المنطقة من سعي إلى تطويق أزماتها والبحث عن حلول سياسية لها.

مسقط تكشف النوايا السعودية للحلّ في سورية

منذ ان استقبلت مسقط أحد اجتماعات التفاوض بين إيران ومجموعة 5+1 قبل التوصل إلى الاتفاق النووي، والذي تلته الخلوة التاريخية بين كيري وظريف، فتحت سلطنة عُمان الأسئلة من بابها العريض على دورها وعلاقاتها مع دول الخليج من جهة، كونها عضواً أساسياً في مجلس التعاون الخليجي، ومن جهة أخرى على علاقتها مع الولايات المتحدة الاميركية ومن جهة ثالثة علاقتها بإيران.

اللافت اليوم انّ مسقط، وبعد اجتماع الدوحة الذي خصص لشرح بنود الاتفاق مع إيران من الجانب الاميركي، ولاحقاً اللقاء الثنائي بين لافروف وكيري ثم الثلاثي بين لافروف وكيري والجبير، تعود مسقط من جديد إلى واجهة الحدث باستقبالها وزير خارجية سورية وليد المعلم.

اللقاء حصل إذاً... وأعلن الوزير المعلم ونظيره العُماني يوسف بن علوي «أنّ الوقت قد حان لتضافر الجهود البناءة لوضع حدّ للأزمة في سورية على أساس تلبية تطلعات السوريين لمكافحة الإرهاب وتحقيق الأمن والاستقرار والحفاظ على سيادة ووحدة وسلامة الأراضي السورية»، واتفقا على مواصلة التعاون والتنسيق بينهما لتحقيق الأهداف المشتركة التي تجمع الشعبين والقيادتين السورية والعُمانية.

استقبال المعلم في هذه الظروف ليس امراً عادياً على الإطلاق في مسقط تحديداً صاحبة العلاقات الجيدة جداً في آن معاً مع واشنطن وطهران، إضافة الى علاقات جيدة مع الرياض عاصمة دول مجلس التعاون الخليجي إذا صحّ التعبير، وبمعنى أوضح فإنّ هذا اللقاء يعني أمرين أساسيين ومباشرين أولهما رضى سعودي كامل على هذا اللقاء وثانيهما قناعة سعودية بضرورة التوصل إلى حلّ سياسي في سورية.

اما بيت القصيد والذي يعتبر متغيّراً على صعيد الساحة الإقليمية والموقف السعودي المتشدّد منذ نحو 5 سنوات هو انّ اللقاء كشف عن رضوخ السعودية أخيراً لفكرة بقاء الرئيس السوري بشار الأسد، وبالتالي فهي على ما يبدو تحاول تجهيز أرضية حلّ سياسي في سورية تؤمّن للسعودية مخارج أقلّ كلفة يمكن لسلطنة عُمان ان تجسّ نبض أصدقاءها الإيرانيين والسوريين تجاه التعاطي مع السعودية.

اللافت ايضاً انّ الرياض وافقت على ان تلعب مسقط دور الإطفائي هذه المرة عنوة عن الدوحة التي لم تستطع على ما يبدو حجز هذه المكانة طويلاً، وفي هذا الاطار سهّلت السعودية بموافقتها او عدم معارضتها لقاء بن علوي – المعلم، ما يدلّ على رغبة سعودية بتذليل العقبات امام سورية للوصول الى نصف الطريق.

مسقط التي يبدو أنها تعرف الكثير عن لقاء مسؤولين سوريين رفيعي المستوى بمسؤولين سعوديين تؤكد صحة هذا التطوّر، في حين تعرف السعودية جيداً انها بطريقة وبأخرى رضخت لبقاء الأسد رئيساً للجمهورية العربية السورية وأن لا حلّ من دونه.

«توب نيوز»

تهيؤات إعلامية

–منذ أربع سنوات سمعنا ألف مرة على الأقلّ أنّ موسكو وطهران تنضجان للمفاوضة على مستقبل سورية والقبول بأنّ زمن الرئيس السوري قد انتهى.

–تأتي الوقائع وتقول العكس، فيستخدم الروس الفيتو في مجلس الأمن مرة ومرتين، وتقف إيران بقوة مع سورية مالاً وسلاحاً وحلفاء وسياسة، فترفض أن تضع مستقبل دعمها لسورية ثمناً تفاوضياً للفوز بملفها النووي، فيخرج ذات المتحدثين بالقول: روسيا وإيران هما العقدة.

–يذهبون بموفديهم يحملون العروض إلى روسيا وإيران مالاً وسياسة، ويعودون ليقولوا: يبدو أنّ هناك مؤشرات على تغيير في موقف روسيا وإيران من الرئيس الأسد!

–تقع جولات مواجهة ويخسرونها فيقولون عادت روسيا تريد الأسد ورقة تفاوض لوضعها في أوكرانيا، وإيران تريده لتقوية ملفها النووي، ولما تتفوّق روسيا في اوكرانيا، وتوقع إيران نوويا يهدأون موقتاً.

–يخرج السيد الخامنئي والرئيس بوتين متمسكين بالرئيس الأسد فيسكتون ثم يعاودون الكرة بعد حين.

–من تمسك بالتحالفات في أسوأ الظروف لا يتخلى عندما يبدأ قطاف النصر.

الأحلام عادة في اليقظة هي كوابيس معكوسة وهم يعلمون أنّ الأسد باق وأنهم تبلغوا ذلك من أسيادهم.

التعليق السياسي

بَلادة العربان... ورحلة أردوغان إلى الجحيم!

■ نصار إبراهيم

(الخبر: نشرت «موسكو تايمز» تقريراً مفصلاً عن استدعاء خرق بموجبه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الأعراف الديبلوماسية طاول السفير التركي لدى روسيا أوميت يارديم ليلقي على مسامعه وفقاً لوصف الصحيفة الروسية الناطقة بالإنكليزية والمقرّبة من الكرملين، خطبة لاذعة طويلة انتقد فيها السياسة الخارجية التركية، وما وصفه بسياساتها الحاقدة، محذراً من أنّ الرهانات التي يقيمها الرئيس التركي رجب أردوغان على جماعات «القاعدة» وعلى الأطماع في سورية لن تبقى من دون ردّ، وبعدما طلب إلى السفير تحذير رئيسه الذي وصفه بالديكتاتور من مواصلة نشر الأكاذيب المنسوبة إلى محادثاتهما، من أنّ موسكو كما يعرف أردوغان تدعم الرئيس السوري وجيشه، وإذا تمادت تركيا في العبث في سورية فسيكتشف هتلر تركيا كما نقلت الصحيفة الروسية وصف بوتين لأردوغان أنّ سورية ستكون ستالينغراد التي يخسر جيشه فيها ويخرج منها مدمّراً مفككاً، وتحدّثت الصحيفة عن جدال عنيف دار بين بوتين ويارديم أنهاه بوتين بالقول: قل للديكتاتور إنّ تطلّعه إلى العبث في سورية سيجعلني أرسله إلى الجحيم). (المصدر: «البناء» – 6 آب 2015).

***

بعيداً عن ملابسات الخبر أعلاه وتفاصيله المعلن منها والمخفي... فإنّ الأهمّ هو السياق والدلائل التي يؤشر إليها الخبر... بمعنى أنّ المواجهات في المنطقة قد وصلت إلى النقطة التي لم تعد تجدي معها اللغة الديبلوماسية والمجاملات... ومن لا يريد أن يفهم التحوّلات وحدود القوة عليه أن يستعدّ لسماع كلام مباشر ونهائي... وبكلمة لقد وصلت المواجهة والمعادلات إلى خواتيمها ومن سيواصل ركوب رأسه الأخرق كأردوغان والعربان فليستعدّ لدفع الثمن مباشرة هذه المرة.

«العربان» المستعربة... يتباكون على العروبة... ويرون في الاتفاق النووي الإيراني تهديداً للأمن القومي العربي... هل هناك مسخرة أكثر من ذلك...!؟

يظنّ هؤلاء العربان المستعربون أنهم بعنترياتهم وحماقاتهم سَيُنسون الناس حقائق التاريخ وبديهيات الواقع وحقائقه الصارمة... ومن تلك البديهيات مثلا لا حصراً: أنّ هؤلاء العربان المستعربين هم ذاتهم من أضاعوا أو ضاعت فلسطين من «تحت شواربهم» منذ أكثر من ستة عقود... وهم ذاتهم من يدمّرون اليمن منذ أكثر من ثلاثة أشهر ويحاصرونه ويبيدون أطفاله... وهم ذاتهم من تآمر وموّل وسلح كلّ قاتل ولصّ بهدف تدمير سورية ودولتها الوطنية وجيشها العروبي الباسل... وهم ذاتهم من دمّر العراق واستقدم الغزو إليه... وهم ذاتهم الذين شربوا «حليب سباع» الناتو فدمّروا ليبيا... وهم ذات العربان الذين لا يرون في سفالات أردوغان تهديداً للأمن القومي العربي... وكأنهم لا يتذكرون أربعة قرون من الاحتلال العثماني والتتريك... مما جعل أمة العرب تتأخر عن عصرها أربعة قرون عثمانية... ومع ذلك فإنّ تركيا التي تقصف شمال العراق وتهدّد سورية لا تشكل تهديداً للأمن القومي العربي... بينما إيران حسب بؤسهم ورعونتهم هي التي تهدّد الأمن القومي العربي!! ولهذا يخلص العربان المستعربون إلى «جوهرة عبقريتهم السياسية» التحالف مع كلّ قوة محلية وعالمية وإقليمية كانت سبباً في ويلات العرب لمواجهة تهديد إيراني مفترض...

العربان المستعربون عنوان التخلف والجهل والنذالة وثقافة الانتقام والغزو البائس بلا مروءة وبلا قيم لا يشكلون تهديداً للأمن القومي العربي... بينما إيران هي التهديد... فهل هناك أكثر استفزازاً ووقاحة من هذا المنطق الأخرق!؟

حسنا لنقل إنّ لإيران طموحات وأحلاماً بمدّ نفوذها مثلها مثل غيرها من الدول القوية... ليكن ذلك... فهل الردّ على المشروع الإيراني هو بتدمير حواضر الأمة العربية وعواصمها وحضارتها ونسيجها الاجتماعي والتحالف مع الكيان الصهيوني المحتلّ الرابض على قلبها... ومعانقة كلّ قوة استعمارية كان لها نصيب في نهب الأمة وإذلالها من بريطانيا العجوز إلى فرنسا الاستعمارية وصولاً إلى الولايات المتحدة الأميركية التي تنتشر قواعدها كبثور الجدري في بلدان العربان المستعربة دون أن يروا في ذلك تهديداً للأمن القومي العربي...!؟

إذن... «خراريف» التخلف هذه لتوضع جانباً... خاصة أنّ معادلات المواجهة قد وصلت إلى لحظة الحسم المباشر... فأردوغان يعلن أنه سيقيم منطقة عازلة في سورية، وكان قد أعلن من قبل بأنه سيصلي في المسجد الأموي العصيّ على «لحيته»... مما حدا بالرئيس بوتين أن يوجه إلى هذا الأحمق رسالة مباشرة بأنه «سيرسله إلى الجحيم هو ودواعشه إذا عبث بسورية، وستتحوّل سورية إلى ستالينغراد كبيرة»! كم كان الأجدى لو جاء هذا الردّ مثلا من عربان النذالة وليس من بوتين... ولكن هيهات!

ومما يزيد من بؤس العربان المستعربة أنهم لم يتعلموا الدرس والرسائل الواضحة التي قالها باراك أوباما (الذي وبّخهم أكثر من مرة على فقر خيالهم السياسي والمعرفي) في خطابه يوم 5 آب 2015 دفاعاً عن الاتفاق النووي الإيراني: بأنّ مصلحة أميركا فوق كلّ اعتبار... وبأن لا أحد في إيران لا الحكومة ولا المعارضة ولا الشعب مستعدّون لتسليم سيادة إيران القومية...

ألا يفهم العربان المتخلفون معنى هذا الكلام...! طبعاً لا يفهمون... أو يفهمون ولكن ليس في يدهم حيلة ولا يملكون الجرأة على مغادرة بيت الطاعة.

في كلّ الأحوال تتجه المعادلات الآن إلى نهاياتها... وقد توضّحت أبعاد علاقات القوة ومحدوديتها... وكلّ نواح العربان وبؤسهم لن يغيّر من حقائق الميدان التي فرضها تماسك وبسالة الجيش الوطني السوري والمقاومة وتماسك الحلف الإيراني الروسي الصيني الداعم لمواجهة مشاريع الهيمنة الأميركية والأحلام الطورانية الأردوغانية... وصمود الجيش والمقاومة اليمنية وكشف بؤس القوة السعودية وحلفائها... إلى جانب تقدّم الجيش العراقي... أما الولايات المتحدة فهي تعيد ترتيب أولوياتها وأوراقها بما يحافظ على مصالحها الحيوية... وفي سياق ذلك لا بأس باستخدام العربان كمطية حمقاء لحماية تلك المصالح...

فمن يريد الخوض في الشأن السياسي الاستراتيجي ليفعل ولكن ليكن منضبطاً لقواعد المنطق ولبديهيات رياضيات السياسة التي لا تحتمل العقل الثأري للعربان ولا محدودية خيالهم ومخيالهم... فقط هو الحقد والغطرسة البليدة في أعلى مظاهر تشوّهها.

الغدر بالإنسان... (تتمة ص1)

لا يرتاح شعبان إلى مصطلح «الأقليات» رغم انه مستخدم من جانب الأمم المتحدة، خصوصاً بـ«إعلان حقوق الأقليات» الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1992/12/18، أو «إعلان حقوق الشعوب الأصلية» الصادر عن المرجعية نفسها في 2002/9/13. يفضّل عليه مصطلح «المجموعات الثقافية» الذي ينطوي على تعددية دينية أو اثنية أو لغوية، ويجده أقرب إلى مبادئ المساواة والتكافؤ وعدم التمييز وذلك في إطار الحقوق المتساوية، ولا سيما حقوق المواطنة. فمفهوم «الأقلية» و«الأكثرية» يحمل، في رأيه، معنى التسيّد من جهة والخضوع والاستتباع من جهة أخرى، أي اللامساواة، وذلك سيكون انتقاصاً من دين أو قومية أو لغة أو غيرها من المكوّنات بزعم كونها أقلية».

الأقليات هي، إذاً، ثقافات. والثقافات تنطوي على عناصر ومكوّنات متعدّدة، منها الدين واللغة والاثنية والتقاليد. وقد يكون أحد هذه العناصر فاعلاً في بعض المجتمعات أكثر من غيره فيصبح موضوعاً جاذباً للانتماء والتماهي، أي يصبح هوية، ومع ذلك يبقى جزءاً من كيان معنوي أكبر وأعم هو الثقافة.

لعلني، في هذا المجال، أذهب إلى أبعد من مقولة شعبان بأن الأقلية هي في الواقع ثقافة. أقول إن الثقافة، ثقافة الإنسان الفرد كما ثقافة الجماعة، هي عامل رئيس في الحياة، بالتالي في تحديد مصلحة الفرد والجماعة. كارل ماركس يجزم بأن المصلحة، المصلحة المادية خصوصاً، هي العامل الأول المقرر في حياة الإنسان. لكن، كيف يحدد الإنسان مصلحته ويتخذ قرارات في ضوئها؟ ألا يفعل ذلك من خلال ثقافته، أي من خلال مكوّنات ثقافته المتعددة، ومن ضمنها بالتأكيد العامل المادي أو الاقتصادي؟

إلى ذلك، فإن المسيحيين العرب، وربما غيرهم من «الأقليات» أو الثقافات، ليسوا أقلية. إذا كانوا (وما زالوا) عرباً فهم، إذاً، جزء من الأكثرية الساحقة التي تعتبر نفسها عربية في عالمنا. إذا كانوا (وما زالوا) جزءاً من الثقافة العربية السائدة، فهم إذاً جزء من الأكثرية الساحقة التي تحملها وتمارس معاييرها في عالمنا. وإذا كانوا (وما زالوا) ينتمون كلياً أو جزئياً إلى جماعة سياسية تشكّل في زمان ومكان الأكثرية في المجتمع أو في البلاد، فهم إذاً ليسوا أقلية بالمعنى العددي المتعارف عليه.

يذكّر شعبان الجاهلين والمتجاهلين بأن «المسيحية هي بنت المنطقة العربية وأن الثقافة المسيحية، منذ ألف عام ونيّف، كُتبت بالعربية، والأمر لا يقتصر على فرقة أو مذهب، أو طائفة، بل إن المسيحية بجميع توجهاتها وألوانها اختارت ذلك».

ولأن الحضور بشتى أشكاله وتعبيراته أوزن في ميزان الفعالية من العدد، فقد حرص شعبان على تذكيرنا جميعاً بأن كثرةً وازنة من رموزنا وكبارنا وقادتنا وقدواتنا كانت، قديماً، مسيحية. ألم يكن حاتم الطائي، رمز الكرم، مسيحياً؟ ألم يكن كذلك امرؤ القيس والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد، وهم أشهر الشعراء القدامى، من المسيحيين؟ ألم يكن كذلك عنترة بن شداد، وهو رمز الشجاعة والفروسية؟ أما في التاريخ المعاصر فإن قائمة الرّواد والقادة والمجددين والمبدعين في شتى ميادين الحياة تفيض بأسماء مسيحية ساطعة: البساتنة واليازجيون والشدياق في اللغة، وفرح أنطون وشبلي شميّل وأديب اسحق في التجديد والتحديث، وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وخليل مطران والأخطل الصغير في الأدب والشعر، والبابا شنوده والمطران جورج خضر في الفكر والممارسة الدينيين التوحيديين، وأمين الريحاني وأنطون سعاده وميشال عفلق وفهد (يوسف سلمان يوسف) وسلامه موسى وجورج حبش ونايف حواتمه وسمير أمين في الدعوة القومية واليسارية والتنظيم الحزبي، والعشرات غيرهم في ميادين العمل العام.

يلاحظ شعبان تعاظم التمييز والاضطهاد والتنكيل والتهجير بحق المسيحيين، وهم أكبر المجموعات الثقافية غير الإسلامية في عالم العرب. فقد أضحوا، بعد موجة ما يسمى الربيع العربي «هدفاً سهلاً للإرهاب وضحايا جاهزين لفرض نمط سياسي وديني واجتماعي معين، في إطار صراع أصولي وطائفي ومذهبي واثني، وغالباً ما يتم التشكيك بأصولهم ووطنيتهم وولائهم». لماذا؟

يردّ شعبان حملة التمييز والترهيب والتهجير ضد المسيحيين ونتائجها إلى دوافع سبعة:

الأول، دفع المسيحيين إلى الهجرة ما سيؤدي إلى ترسيخ الاعتقاد السائد بتعصب المسلمين وتطرفهم ورفضهم للآخر.

الثاني، تمزيق النسيج الاجتماعي لمجتمعات وشعوب ظلّت متعايشة على رغم نواقص وثغرات وسلبيات تتعلق بالحقوق وبمبدأ المساواة والمواطنة الكاملة.

الثالث، تعزيز الاتجاه القائل بعدم رغبة المسلمين في التعايش مع الغرب المسيحي الأمر الذي سيضع المسلمين الذين يعيشون في الغرب في دائرة الشك والارتياب.

الرابع، الإيحاء بأن استهداف مسيحيي الشرق دليل آخر على أن المسلمين يعملون على استئصال الأديان الأخرى ما يخدم ادعاء «إسرائيل» بأن صراعها مع العرب والمسلمين هو صراع ديني تناحري، إقصائي، لأنهم يريدون القضاء على اليهود.

الخامس، استهداف المسيحيين يؤدي إلى انحسار مساحة الديمقراطية وتدني مستوى الحريات العامة والشخصية الأمر الذي يرسّخ الاعتقاد بأن بيئة كهذه تشجّع على الإرهاب والعنف والاستبداد والإلغاء.

السادس، استهداف المسيحيين في الشرق ودفعهم إلى الهجرة يشكّل استنزافاً لطاقات علمية وفكرية وفنية وأدبية وكفاءات اقتصادية واجتماعية يمتلكها المسيحيون، وفي ذلك خسارة كبرى لشعوب المنطقة وطاقاتها البشرية.

السابع، استهداف المسيحيين في الشرق يؤدي إلى خسارة دعم كبير يقدّمه المسيحيون في الغرب والعالم للعالم العربي والإسلامي ولاسيما من قبل الفاتيكان والأوساط الكاثوليكية التي تعتبر أرض فلسطين كلها مقدّسة بالنسبة للمسيحية.

إن نظرة مدققة إلى الدوافع السبعة المار ذكرها تشير بوضوح إلى أن «إسرائيل» ودوائر صهيونية أو متصهينة في دول الغرب الأطلسي هي التي تقف وراء الحملة الظالمة على المسيحيين العرب. غير أن شعبان يضيف إلى هؤلاء جميعاً عاملين إضافيين. الأول هو الاحتلال الأميركي للعراق وتأجيجه «الصراع» السني– الشيعي الذي غذّاه أمراء الطوائف بعد القسمة الضيزى لمجلس الحكم الانتقالي التي قررها الحاكم المدني الأميركي بول بريمر. العامل الثاني صعود قوى الإسلام السلفي المتطرف، وفي مقدمها تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام – داعش» وجماعات «القاعدة» وقوى التكفير مهما اختلفت تسمياتها التي تقول «إن على المسيحيين الانصياع إلى قدرهم وعدم المطالبة بالحقوق المتساوية والمواطنة المتكافئة لأنهم «ذمّيون» و«لا ولاية لذمّي»، وإذا أرادوا البقاء في «دار الإسلام» وتأمين حمايتهم، فعليهم إما الأسلمة أو دفع الجزية».

ويستنتج شعبان بحق أن هذا «ما تريده «إسرائيل» التي تسعى لتصوير الصراع في المنطقة بوصفه صراعاً دينياً بين المسلمين واليهود وصراعاً طائفياً بين الشيعة والسنّة وليس صراعاً بين الصهاينة من جهة والشعب العربي الفلسطيني المهضوم الحقوق من جهة ثانية».

لا يتوانى شعبان في دحض مقولات ومدعيات الإسلاميين التكفيريين والتأكيد على احترام الإسلام للتنوع والتعددية والخصوصية الثقافية والدينية وتبنّيه لمفهوم «حلف الفضول» الذي كان أبرم في زمن الجاهلية وتعاهد بموجبه فضلاء مكة على ألاّ يدعوا مظلوماً من أهلها أو ممن دخلها من سائر الناس إلاّ ونصروه على ظالمه، وصولاً إلى «الصحيفة» أو «دستور المدينة» في المدينة (يثرب)، وصلح الحديبة الذي كان ضمن حقوق نصارى نجران، إلى «العهدة العمرية» التي ضمن بموجبها الخليفة عمر بن الخطاب حقوق نصارى وطوائف القدس على حياتهم وأمنهم وكنائسهم وأموالهم.

كيف يمكن مواجهة هذه الحملة المغرضة على المسيحيين العرب؟ وكيف يمكن تأمين حاجتيهما الأساسيتين في مفهوم شعبان وهما التمتع بالمواطنة الكاملة، والمساواة في الحقوق والواجبات؟

يدعو عبد الحسين شعبان، كما غيره من العروبيين الديمقراطيين التقدميين العرب، إلى معالجة الاختلالات الجسيمة في الحياة السياسية العربية التي تمسّ المحكومين جميعاً، مسلمين ومسيحيين، ببناء الدولة المدنية الديمقراطية التي تكفل الحرية، والمساواة، والمواطنة، وحكم القانون، وممارسة الخصوصيات الثقافية، والتنمية. وقد ختم أبحاثه باستنتاج لافت وهو «أن الهوية العربية، المتعددة، والجامعة، ستكون أشمل وأعم وأكثر انسجاماً وثقة كلما كانت حقوق المجموعات الثقافية، الدينية والاثنية واللغوية والسلالية مؤمّنة ومحترمة، وأغنى بالحقوق والحريات والمساواة».

هكذا يتبدّى عبد الحسين شعبان في كتابه داعية ملتزماً بالحريات وحقوق الإنسان، ومحامياً عنيداً عنها في جميع الظروف والبلدان، ولا سيما في عالم العرب والمسلمين.

عصام نعمان

الأمة بين ثقافة... (تتمة ص1)

جميعاً، حكومات ومجتمعات، أحزابا وتنظيمات، أفراداً وجماعات، وثقافة التكامل التي ما أعتمدها قائد أو جماعة أو حزب أو حتى فرد إلا وكتب لهم النجاح والانتصار على كل التحديات. تاريخنا القريب والبعيد مليء بالشواهد التي تؤكد على هذه المعادلة، كما هو مليء بالشواهد التي تثبت انه ما من مرة جرى التخلي عن هذه المعادلة إلا ودفع الجميع الثمن باهظاً.

ثقافة الإقصاء مصدرها الإحساس بفائض القوة الذي يقود إلى الإحساس بإمكانية الاستغناء عن الآخر، رأياً كان أم فكراً أم حزباً أم جماعة، بل إلى الإحساس بإمكانية إلغائه أو تصفيته إذا ظهرت منه بوادر اعتراض على إقصائه أو امتناع عن الاستسلام لمشيئته.

بل إن ثقافة الإقصاء تجد سنداً لها في بعض العقائد والأفكار، فيلجأ أهلها باسم الدين أو المذهب إلى التكفير، وباسم الوطن أو الطبقة إلى التخوين، بل كثيراً ما يستمدّ التكفير من التخوين مبرراً لسلوكه، فيما يلجأ أهل التخوين إلى فظاعات جماعات التكفير لتبرير تخوينهم لهم أو لغيرهم، فيبدأ الصدام عقائدياً ليصبح سياسياً بل ودموياً في نهاية الأمر.

ثقافة الإقصاء هذه لا تنطلق بالضرورة من نوايا سيئة أو مصالح ضيقة، بل إنها تنطلق بالدرجة الأولى من ضيق في الفكر، وقصر في النظر، ونقص في الخبرة، وقصور في الفهم، كثيراً ما يستغله أعداء الأمة لتحريض بعض أبنائها على بعضهم الآخر.

فأهل الإقصاء يعتقدون أن توازن القوى القائم في لحظة معينة، والذي قد يكون لصالحهم، هو توازن دائم يسمح لهم بالاستغناء عن الآخرين بل العمل على إقصائهم.

ثقافة الإقصاء ليست بنت الحاضر فحسب، بل أنها في تلك القراءة الانتقائية المبتسرة للماضي أيضاً، فيرى بعض أهلها في التاريخ ما يعزز منطقهم الإقصائي الإلغائي ويزوده بالأسانيد الشرعية، تماماً كما يرى البعض الآخر من أهلها في التجارب التي تمر بها شعوب أو أحزاب أو قادة معاصرون ما يزيّن لهم هذا الخيار الاجتثاثي والاحتكاري، ولعلّ نظرة تقويمية منصفة إلى تجاربنا جميعاً تجعلنا ندرك أن جميعنا قد عانى من نهج الإقصاء سواء حين تبناه أو حين كان ضحيته.

كذلك فثقافة الإقصاء تعاقب جماعة بأسرها بذريعة ما ارتكبه فرد أو أفراد منها وهي بذلك تجافي المنطق الإنساني، والشرع الرباني الذي أكد بأن لا نحمل وازرة وزر أخرى.

أما ثقافة التكامل، فعلى العكس من ثقافة الإقصاء، تنطلق من أن ما ينتظر الأمة كلها، وأقطارها قطراً قطراً، من تحديات لا يمكن لأي تيار أو نظام أو فئة أو جماعة أن تواجهه وحدها، بل إن هذه المواجهة تتطلب تكاملاً في الجهود والطاقات، في الرؤى والإمكانات، تكاملاً بين الأجيال والأقطار، بين العقائد والأفكار، بين الأنظمة والتنظيمات، ذلك أن كل من هذه المكونات أو الرؤى يمتلك عنصر قوة لا يمتلكه الآخرون وبالتالي فالتلاقي بينها إضافة نوعية لكل منها. بل لمشروع المواجهة كله.

ثقافة التكامل هي بالضرورة ثقافة وحدوية لأنها تقرّب الجميع من الجميع، وتركز على ما يجمع وتستبعد ما يفرّق، تقرأ الماضي بعين موضوعية، فلا تتعامل معه كسجن فتبقى أسيرة له، بل كمدرسة يتعلم منها الجميع ويستفيد من تجارب الأمس وخبرات الأولين.

فالوحدة العربية مثلاً، أيّاً كان شكلها الدستوري، تبدأ بالتكامل الاقتصادي والسياسي والعسكري والثقافي بين دول الأمة وأبنائها. والجهات السياسية تقوم على برامج مشتركة فتتكامل في نضالها وترتقي بهذا التكامل إلى أعلى مستوى ممكن.

وثقافة التكامل هي بالضرورة ثقافة ديمقراطية لأنها تنطلق من فكرة الاعتراف بالآخر، والقبول به، والتعايش معه وصولاً إلى التكامل، وهذه الفكرة هي أساس الديمقراطية التي تتفرع منه كل آلياتها.

وثقافة التكامل هي ثقافة العدل التنموي، لأن التنمية بمفهومها الحديث أي التنمية البشرية هي تنمية تقوم على التشاركية في الإنتاج بين الناس وعلى المشاركة العادلة في حصد ثمار هذا الإنتاج، بل بحسب علم الاقتصاد لا تقوم عملية إنتاجية من دون تكامل عناصر الإنتاج المعروفة في علم الاقتصاد.

وثقافة التكامل هي ثقافة استقلالية، لأن الأمم لا تعرف الاستقلال الحقيقي وتصونه إلا حين تنجح في إقامة جبهات تحرير تتكامل داخلها كل الشرائح والتيارات والقوى الوطنية، وحين تنجح بعد الاستقلال في إقامة منظومة تتكامل فيها المكونات السياسية والاجتماعية، وقد علمتنا تجاربنا أن ما من استقلال قام إلا على تكامل نضال أبناء الوطن وفئاته، وما من استقلال اهتز وتعثر وسقط إلا حين غاب هذا التكامل.

وثقافة التكامل هي ثقافة التنوع الحضاري بكل محطاته التاريخية، لأن تكوين الأمة الراهن هو حصيلة تراكم حضارات وأعراق وثقافات وتكاملها، وكل قراءة أحادية لتاريخ الأمة يستبعد مرحلة هامة من مراحله ستؤدي إلى قصور في قراءة الواقع وتحدياته، وبالتالي إلى تقصير في مواجهة تحديات الحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

من هنا، فإذا كان لمواجهة جماعات الغلو والتطرف والتوحش في الداخل، كما لأعداء الأمة من صهاينة ومستعمرين في الخارج، متطلبات أمنية وعسكرية وسياسية واجتماعية وإعلامية فإن لها أيضاً متطلباتها الثقافية والتاريخية، وفي مقدمها اعتماد ثقافة التكامل وإبعاد ثقافة الإقصاء... التي إذا أبعدناها من أفكارنا وممارساتنا إنما نسحب من أعدائنا أمضى أسلحتهم.

قد لا يُعجب أهل الإقصاء، على أنواعهم، هذا الكلام، ولكنهم لو فكروا جيداً في التجارب التي مروا بها لأدركوا باليقين أن هذا النهج قد كلف الجميع ولم ينج من كارثيته أحد.

معن بشور

الأسد غيَّر... (تتمة ص1)

معظم الدراسات الغربية تؤكد الآن، انه لو حصلت الانتخابات بغطاء دولي وبإشراف العالم، فإنّ الأسد قد يفوز، ليس فقط لأنّ شعبيته لا تزال جيدة، ولكن أيضاً لأن لا منافس حقيقياً له بين معارضيه الذين ما عاد بعضهم قادراً على الحصول على تأشيرة في دول ادّعت يوماً أنها «أصدقاء سورية»، ولأنّ الناس بعد هذه الحرب الضروس، وبعد سوء معاملة اللاجئين في دول اللجوء، وبعد شظف وقسوة وخطر العيش في مناطق سيطرة الإرهابيين والتكفيريين، ما عادوا يجدون غير الدولة تحضنهم، وجيشهم يحميهم.

قد يبدو هذا الكلام مؤيداً للرئيس السوري. وسوف ينبري كثيرون لإطلاق الاتهامات، ولكن منذ بداية الأزمة السورية، وأنا شخصياً أكتب أنّ موازين القوى، وتماسك الجيش السوري، وعدم تفكك الدولة المركزية التي لا تزال حتى الآن تدفع الرواتب، وبقاء العصب الشعبي الأساسي المؤيد للدولة في مكانه، وصلابة الحلفاء من روسيا إلى إيران وغيرهما لأنّ مصالحهما أيضاً تقتضي هذه الصلابة، والشخصية الباردة والحازمة للرئيس الأسد، لن تسمح بقلب المعادلات أو بسقوط النظام. حينذاك أيضاً كان كلامي يبدو حاملاً تأييداً للأسد، ولكنه في الواقع كان يستند إلى وقائع الأمور لا إلى الأحلام والأوهام.

ليس مهماً الآن معرفة لماذا وكيف وصلت سورية إلى معادلة، «إما الدولة أو الإرهاب»، ولكنها وصلت إليها. ما عادت أميركا وحلفاؤها في الأطلسي قادرين على إدارة الفوضى التي اعتقدوا أنها في أفضل أحوالها تُسقط النظام وتطوق إيران وتنهي المقاومة، وفي أسوئها، تترك سورية مدمّرة وجيشها مفككاً فترتاح «إسرائيل».

ومن يزور الأسد هذه الأيام قد يستنتج الأمور التالية:

– لا تزال الأولوية للمعركة العسكرية، لأنها الوحيدة التي أثبتت جدواها أمام شراسة الهجوم المعاكس.

– لا بأس أن تتجاوب سورية مع المبادرات السياسية طالما أن حلفاءها من روسيا وإيران هما في صلب ما يُطرح، لكن لا ثقة بعد بأميركا والأطلسي لأنهما لو أرادا فعلاً الحلول لجففا فوراً مصادر الإرهاب وتمويله وأقفلا حدود تركيا ولجما من لا يزال يموّل ويحرّك الإرهاب على الأرض السورية.

– يبتسم الأسد حين يُقال له إنّ إيران قد تضحّي بك شخصياً لتمرير التسوية. بالنسبة له، لا تتعلق المسألة بأشخاص ولا بعواطف، فمصلحة إيران والمقاومة في ثبات سورية وصلابتها هي كمصلحة سورية في ثبات موقفها مع حلفائها. ولعلّ الأسد لديه من الرسائل الإيرانية والروسية وغيرها ما يناقض كلّ ما قيل ويقال. ولعله يعرف أن من يسرّب مثل هذا الكلام يريد الشقاق بين سورية وإيران من جهة ويريد إضعاف إيران من جهة ثانية.

– يشعر الأسد بأنّ الرياح الدولية والإقليمية بدأت تتغيّر، لكن ثقته أصلاً بتلك الرياح ضعيفة، لا بدّ إذاً من البقاء على صلابة الموقف العسكري والسياسي، وإعطاء الأولوية للداخل السوري كما كان الشأن منذ بداية المعركة، وحين يكون في أيّ مبادرة سياسية ما يناسب سورية ودورها فلا تردّد في التعامل إيجابياً معها. لا شيء يمنع حصول تطورات عسكرية مهمة في الأسابيع المقبلة تتزامن مع الحركة الديبلوماسية.

ما يُقال فوق الطاولات عن دول بدأت تمدّ خطوطاً مع دمشق مهمّ، لكن ما لا يُقال هو الأهمّ. لو نطق وليد المعلم سيكشف الكثير. يشعر الأسد وفق زواره، بأنّ العالم اقتنع بوجهة نظره في شأن الإرهاب، «لكن للأسف اقتنعوا فقط حين صار الإرهاب يطرق أبوابهم ويفتك بشعوبهم، على رغم أننا حذرنا مراراً وبعثنا معلومات دقيقة عبر مندوبنا في الأمم المتحدة أو عبر آخرين إلى كلّ تلك الدول».

أن يذهب الوزير العريق بديبلوماسيته وليد المعلم إلى مسقط، ويتعمّد أن يوزع كلّ تلك الابتسامات من الدولة الهادئة والجميلة التي نسجت أولى خيوط التفاوض بين إيران وأميركا، فهو يعرف أنّ الرسائل التي تحملها ابتساماته من قلب الخليج، لها أكثر من اتجاه.

قد يذهب خيال البعض الآن إلى حدّ القول، نعم العالم يريد الدولة السورية ويريد الجيش السوري ويرفض تفكك مؤسسات هذه الدولة لكنه يريد رحيل الأسد، لكن واقع الأمور في سورية يقول إنّ كل هذه المؤسسات باتت والأسد صنوان.

أما المغامرة التركية الجديدة بذريعة محاربة «داعش»، فهي بنظر دمشق مجرد تغطية على هزيمة السياسة السورية لأردوغان، والذي يدرك أنّ فشله في الانتخابات وفشله في تشكيل حكومة ائتلافية وفشله في ترويض الكرد، كلها ثمار لقصر نظرته السياسية حيال البلد الجار الذي فتح له يوماً ما كلّ الأبواب حتى على حسابه. السعودية نفسها مستاءة جداً الآن من الحركة التركية.

لا شك أنّ كلّ سوري بمن في ذلك كلّ ضابط وجندي في الجيش السوري يريدون الخلاص من هذه الحرب التي دمّرت البشر والحجر والنفوس، لكن الأكيد أن بشار الأسد بات بالنسبة إلى الذين يقاتلون إلى جانبه منذ أكثر من 4 سنوات رمزاً لصمود أو انهيار محور كبير...

هو لم يرحل حين كان العالم الغربي والأطلسي ودول خليجية وتركيا جميعاً تعمل على إسقاطه، فهل يرحل اليوم بعدما صار الجميع بحاجة لدور سورية في ضرب الإرهاب وربما بحاجة لها ولإيران لاحقاً في الهدنات والتسويات في المنطقة؟

يجب أن يكون الإنسان حالماً أو واهماً أو قصير نظر ليفكر بأنّ أول مبادرة طرحتها إيران بعد اتفاقها النووي مع الغرب ستفضي إلى رحيل رئيس لو شاء لكان ربح العالم والأطلسي والغرب والخليج بمجرد أن يبيع إيران أو المقاومة منذ اجتاح المجنون جورج بوش العراق وقتل شعبه وتمزيقه.

ربما لذلك يبتسم الأسد، بالرغم من كلّ الدمار والدموع.

سامي كليب